القصد والغاية

في الطبيعة وما بعد الطبيعة

بربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟
مسيرك قل لنا في أي شيء ففي أفهامنا منك انبهار ؟
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تدار ؟
وموج ذا المجرة أم فرند على لجج الدروع له أوار ؟

*
* *

منذ أن ترامى أول شعاع أرسله الفكر فشق في ظلمات القرون الاولى للفلسفة طريقاً الى خفايا العالم المجهول ، تساءل الانسان لماذا خلق العالم ؟ وأية غاية سبقت في حكم القدر ليخرج هذا الكون قائماً على مانرى فيه من نظام ؟ ان أردت أن تقع على جواب ينقع غلتك ويرأب بقوة أدلته ماتصدع من يقينك، فأجب لاأدرى ؟ كن لاأدريا أزاء هذا اللغز الوعر ولا تحفل بما ينقل اليك من التقاليد . أما اذا سئلت ، أهنالك من قصد في خلق العالم ، وهل من غاية لاجلها خلق الانسان ؟ فأجب اجابة الادريين، وقل نعم . لابد أن يكون من وراء هذا النظام الشامل قصداً كامنا وغاية مخبوءة لاأعرف من ماهيتها شيئا . فان هذا النظام اذ يدل على قوة تدبره على مقتضى الحكمة ، فلا بد من أن تكمن وراء ظواهره غاية هو سائر في نظامه نحوها ، متجه بكل مافيه من النشوء والارتقاء الى بلوغ سمتها القصى والانتهاء عند ذروتها العليا

انقسم الناس منذ أن بزغ فجر الفلسفة في بلاد اليونان ، التي وصل الينا من آثارها العقلية مانعتبره أكبر ميراث ورثه العقل البشري عن القرون الاولى ، الى فريقين . فمنهم من قال بأن وراء النظام الظاهر قوة تدبره بحكمتها وتحوطه بعنايتها ، وأن هذه القوة لا بد من أن تسير بالعالم الى قصد وتسوقه الى غاية ،

نستدل عليهما بما هو مبثوث فى أطراف هذه العالم من نظام لاينتابه خلل ولا نلحظ في نواحية من شيء لايدل على أنه له موجداً . ويقول هؤلاء إن الانسان انما يقيس حالات العالم الخارجى على حالات نفسه ، فكما أن الشبح المنعكس من عدسة زجاجية على حائط ليس سوى صورة مكبرة من ذلك الشبح الكائن فى العدسة ، كذلك النظريات الخاصة بهذا العالم ، كما يقول العلامة كروزيار ، ليست سوى صورة مكبرة من نظريات العقل الانسانى تسبك عادة على نماذج تستمد من تجاريبنا الذاتية . وعلى هذا لايستطيع أن يكون في العالم فكرة منطبقة على حقيقته المطلقة ، غير مقيدة بحدود العقل والذاتية البشرية . هذا مثال الاول .

ومن الفلاسفة من يقول بأن هذا العالم قد صدر عن العماء الصرف على الرغم مما يظهر فيه من نظام . وان القصد فى العالم غير بين ، والغاية لايمكن أن تدرك من بضعة نظم يسير العالم على مقتضاها ولا يمكن للعلم أن يدرك منها شيئا بطرقه الموضوعة ، الا من طريق الحس الانسانى . ولما كان العلم لايعتمد الا على الحواس وحدها ، ولما كانت الحواس لا تنقل الى العقل سوى تجاريب لاتدل طبيعتها على أن فى خلق العالم قصداً ، أو أن فى خلق الانسان غاية ، فان نستطيع أن نسلم بقصد وغاية تكمنان وراء الظواهر الا اذا ثبت لنا ذلك من طريق الحواس : ان العالم كتلة موات من المادة والحركة ، وأن الحياة والفكر وكل خصائص الانسان ليست سوى أعراض مختلفة لتفاعل المادة والقوة التى تحرك دقائقها . وهذا مثال الفريق الثانى .

كل فريق من هذين الفريقين بما لديه فرح فخور . فمن أى الفريقين تريد أن تكون ؟ تابعنى قليلا ونقل معى خطاك في بحث قصير يمكنك أن تكون لنفسك من بعده فكرة مستقلة ، اذا عنيت بعض العناية بتفهم الحقائق التى يقوم عليها .

خلق العقل الانسانى مقسورا على أن يعتقد ببضعة حقائق أولية لا يمكن

بدونها أن يحتفظ بألفته التي ينحصر فيها كل معنى من المعانى التى تفضله عن بقية الخلق الادنى منه في الطبيعة نسبا وأحط مكانة . لهذا ترى الناس منصرفين في حياتهم وهم على شعور تام بأنهم يملكون شيئا يكن بين جوانحهم يسمونه القوة المدركة وأنهم يحوزون شيئا آخر يدعونه حس الجمال والموسيقى والشعر ؛ وأن هذه الضروب المتنوعة من الحس الكامن انما تظهر لهم كأشياء أولية ظاهرة بجانب ذلك الشيء الغامض المبهم الذي يسمونه الارادة الخفية التي لا يستطيع انسان اكتملت ألفة عقله أن يمضي معتقدا بان ليس لها وجود حقيقي . لهذا نسوق مباحثنا لنخلص منها بنتيجة تظهرنا على أن القصد والغاية تكمنان وراء كل الظواهر الطبيعية .

ينكر الماديون أن للارادة وجودا حقيقيا ، ولماذا ؟ لأنهم ان سلموا أن للارادة وجودا حقيقيا لما استطاعوا أن يخلصوا مطلقا من النتائج التى تترتب على هذا القول ؛ ولما أمكنهم أن يخرجوا من قولهم هذا الا معتقدين مع الآلهيين ، بأن للعالم خالقا مدبرا حكيما تبدو ارادته وتظهر حكمته جلية في نواحي الكون ، ولذا تراهم يقولون بأن الارادة ليست الا عرضا لاهتزاز دقائق المخ المادية ، على الضد مما يقول به المثبتون للقصد من خلق العالم إذ يمضون معتقدين بان الارادة ليست الا الانتقال من حركة عقلية الى فعل طبيعي . فاذا أردت أن تمشي مثلا فانك انما تنفذ حركة المشي اذ تقوم في عقلك ارادة تحملك رغما منك على أن تتبع هواها .

من هذا ندرك أن الماديين والآلهيين يختلفون من حيث الاعتقاد فى السببية الصحيحة التى تقوم عليها الارادة ؛ يقول الاولون إن السبب الحقيقي فى الارادة ينحصر في اهتزاز دقائق المخ المادية التى تنتج كل الصفات العقلية ؛ ويقول الآلهيون إن الارادة عبارة عن خاصية من الخاصيات التي يتصف بها

العقل الانساني ، ولذا فهي لاتعود الى سبب منه تستمد ، وأنما لها وجود حقيقي قائم بذاته .

فاذا تابعنا الماديين وأنكرنا أن للارادة وجودا حقيقيا وأنها ليست سوى عرض من أعراض السببية الحقيقية التي هي عند الماديين عبارة عن اهتزاز دقائق المخ المادية ، لم يحل بيننا وبين انكار كل الخاصيات العقلية الاخرى حائل . وعلى نفس الدلائل التي ينكر بها الماديون الوجود الحقيقي للارادة نستطيع أن ننكر كل الخصائص والقوى والمدركات الانسانية الاخرى ، نستطيع أن ننكر وجود الجمال والموسيقى ، بل لانقف عند هذا وحده ، فنمضي من ثم الى انكار أن هنالك فرقا حقيقياً بين منازع الفكر والعواطف . ونقضي من هذه السبيل على الفضائل ومضاداتها من الرذائل ، على اعتبار أن هذه الاشياء ليس لها من وجود حقيقي ، بل نقضي على كل قضايا العقل الانساني ولانترك من ورائنا بعد هذا في الحياة البشرية برمتها من شيء يستحق أن يكون له قيمة صحيحة اللهم الا كتلة مواتا من المادة والحركة .

الى هذا المزلق الوعر يسوقك الماديون ، يسوقونك أمامهم سعياً إلى حيث تفقد ألفة عقلك وتقف حائرا أمام ماتحس به بين جوانحك إحساساً صحيحاً .

تناجي نفسك . اني خلقت مقسورا على أن أعتقد أن دقائق المادة تتجاذب وتتدافع لاني اذا أردت أن أكسر حجراً ، وكذلك اذا أردت أن أضغطه ، فان جواهره ودقائقه تقاوم ارادتي في كلتا الحالتين ، ذلك في حين أني لاأدرك كيف أن دقيقتين من المادة تتجاذبان في حين أنهما تتدافعان ، وكذلك أعتقد ان في الفضاء أثيرا يحمل الى شبكية عيني الضوء وينقل الى صماخ أذني مختلف الاصوات ، في حين أني لم أر الاثير ولم أتناوله بتجربة تثبت وجوده من طريق الحواس ارضاء لطرائق العلم ، يهمس في روعك وحي العقل بأن لاتعتقد بغير هذا وأن امتنع عليك حسياً ادراكه ، يهمس في روعك بأن للعالم المادي المحيط بك وجودا

حقيقيا على الرغم من أن الفلاسفة قد ينكرون وجوده كحقيقة ثابتة ، وعلى هذا تتدرج من الاعتقاد بالعالم الخارجي، الى الاعتقاد بعالمك الكائن في تضاعيف فطرتك . تعتقد بأن هنالك فرقا حقيقيا بين الفضيلة والرذيلة . وبين سمو المدارك الروحانية وبين اسفاف النزعات السفلى. تدرك أن الانانية وحب الذات شر ، وان الغيرية وانكار الذات خير ؛ . وعلى الجملة تدرك أن هنالك فروقا كائنة في عالم العقل بين منازل الفكر والعواطف .

بذلك تناجيك نفسك ويهمس في روعك عقلك . فاذا رجعت الى الماديين والفيهم يرجعون بهذه المعاني جماعها بلا تفريق بينها الى اهتزازات دقائق غير مختلفة بعضها عن بعض أى اختلاف ما ، ولا تدرك من تلك الفروق شيئاً مطلقا ، فلا يصبح من شيء هو أثبت في يقينك من الاعتقاد بأنهم انما يلزمون أنفسهم الحجة بحكم المنطق بأن هذه المعاني لا يختلف بعضها عن بعض اختلافا حقيقياً .

ثم ارجع بعد هذا ثانية الى الارادة ؛ فانك تجد نفسك مقسوراً على الاعتقاد بوجود حقيقي لها على الرغم من معتقد الماديين بانها ليست سوى عرض يلازم اهتزازات دقائق المخ المادية . فاذا اعتقدت بهذا وشعرت بان ألفة عقلك تتطلب منك سببا يعود اليه نظام العالم المادى ، واذا كان كل ما في مستطاع اختبارك أن يصل من علم بالسبب الاول والعلة الاولى ينحصر في الفعل العقلى لارادتك التي هي رغم مزاعم الماديين عبارة عن الانتقال من الحركة العقلية الى الفعل المادي ؛ أصبح من المحتوم ، مادمت قد قسرت على فطرتك التى فطرت عليها ؛ أن ترجع مقتضى ألفة عقلك ومقتضيات تكوينه وخصائصه الى الاعتقاد بأن هذا الكون معلول لارادة عاقلة أى إلى خالق ، وليس لك أن تبحث بعد ذلك في أن لهذه الارادة العاقلة التى تدبر العالم وجودا حقيقياً يثبته العلم من طريق الحواس ؛ كما أنه ليس لك أن تبحث من طريق العلم المعتمد على الحواس الكائنة فيك ؛ ولا تخرج عن حيزك ؛ عن دليل يثبت لك وجود العالم المادي، أو يظهر لك كيف

تتجاذب دقائق المادة وتتدافع ! وانما كل ماتدرك وتعلم أنك جبلت على أن لاتستطيع أن ترد على عقلك ألفته وأن تحتفظ بنظامه التى خلقت مقسوراً على الاعتقاد بصحة مايوحى اليك به ، الا اذا مضيت مؤمنا بوجود خالق ذى ارادة حرة يدبر العالم على مقتضى الحكمة البالغة من سمو المعانى مبلغاً لن تدركه قواك البشرية المحدودة .

نعود بعدهذا ونكرر ثانية أن الانسان مقسور على أن يقيس حالات العالم المحيط به على حالات نفسه ، وانه لايستطيع أن يدرك علة العالم ادراكا صحيحاً كاملا ، وانما كل مافي مستطاعه محصور فى أن يدرك أن للعالم ارادة تدبره كما تدبر ارادته حركاته وأفعاله فى الحياة .

وما دمنا قد سلمنا بأن للعقل ألفة ونظاما ، وما دامت الارادة خاصية من خصائص العقل ، فيترتب على هذا أن حكمة القصد فيالاعمال الارادية لا تصدر الا عن عقل اكتملت ألفته ، ولاترجع فى مصدرها الا الىألفة العقل . أما العقل الذى اكتملت ألفته فتصدر عنه ارادات تسير الاشياء على مقتضى الحكمة . وبحسب مايكون فى العقل من ألفة ونظام تكون نسبة الافعال قربا أو بعداً عن مقتضى الحكمة المدركة بقدر الطاقة البشرية . وعلىهذا النهج تقاس دائماً ارادة القوة المدبرة للكون . كما أن تسلسل الفكرة علىهذهالسبيل يقتضى أن نعتقد بأن القصد والغاية أمران لن ينفك عنهما عقل اكتملت ألفته .

غير أن هذه الفكرات فى مجموعها لاتسلم ، كما يقول أبو العلاء المعرى ؛ من خطرات تدس على حسن الضمير وعلى الفة العقل نفسه . تحيط بك هذه الفكرات وتتساورك منتزعة منك قوة اليقين لتلقيك في غمرات الشك والحيرة اذا ما أزمعت أن تفكر في القصد والغاية التى من أجلها خلق الانسان ؟ وغالب مايفكر الانسان في هذا مقسوراً عليه بمقتضى طبعه مدفوعا اليه بحكم غرائزه . وانا لانكر أن وقوف الفكر أزاء هذهالاشياء وأمثالها موقف اللاأدرية الصرفة

أسلم سبيلا وامن عاقبة من أن يمضى فى التأمل منها فتكتسحه الى حيث المهواة السحيقة يتردى فيها الى أعماق الجحود والالحاد. غير أنك ان أمكنك أن تنصرف عن التفكير في القصد والغاية التى من أجلها خلق كل شيء فكيف تستطيع أن تخلص من التفكير في القصد والغاية التى من أجلها خلقت أنت الكائن المفكر المعتقد في صحة عدد من الحقائق التى تحوطك بنتائجها ، وعلى الاخص اذا اعتقدت وكنت في ذلك محقاً ، أن فكرك الخفي وخطرات نفسك القصية هي أعظم دليل يقوم عندك على وجودك فى وسط عالم لن تبلغ فيه الى نهاية تفكيرا أو عملا !

يخرج الانسان الى هذا العالم جرثومة حية ينبذها القدر نبذا فلا تلبث أن تكتمل بشراً سوياً ، ثم لا يلبث أن يذهب به الفناء منحدرا به من جوف الازل البعيد الى جوف الابد اللامتناهي . تفكر فلا تعرف من أين أتى ولا الى أين ذهب . وأنت كلما تأملت من هذه الحالات لا تجد في العالم كله من سلوى تسليك عن التفكير في نشأتك ومنقلبك بعد الموت الا متاعب في الحياة لن تستطيع أن تقطع من عمرك مرحلة طالت أم قصرت من غير أن تعتقد أنه كان من الحكمة أن تظل حيث كنت قبل أن تولد مكفيا هموم الحياة الدنيا بعيدا عن أحزانها .

علام كل مافي هذه الحياة ؟ علام الحب والبغض ؟ علام الالم واللذة ؟ علام العسر واليسر ؟ ولاى شيء وضع لكل شيء نقيضه ونصب ، لكل أمر ضده ؟ ولاى شيء خلق كل شيء ؟ ولاية حكمة سبقت مشيئة الغيب أن يكون الامل فى نفسك أعرق أصلا من اليأس في الحياة ؟ تقول الفلسفة الحقة لاأدرى . وكفى بلاأدرى للفكر عاقلا عن الانبعاث مع التأمل فى فلوات مجدبة لاتبلغ منها الى نهاية .

غير أنك اذا تركت الفلسفة ورجعت بعدها الى مباحث العلوم الحديثة وقعت فيها على شعاع يضيء سناه بعض مايكتنف هذه الحياة من ظلام تشتد حلكته من حولك ، كلما تأملت في حالات حياتك والقصد منها .

وضع الفلاسفة في كل الاجيال أمثالا من فضائل الاخلاق تحتذيها النفس المهذبة لتكمل بها ناسوتيتها العليا . من هذه الامثال انكار الذات والغيرية . وهي فضائل تظهر واضحة في سلوك الافراد ازاء بعضهم البعض وازاء المجموع الذى هم تابعون له وللهيئة الراعية التي تقوم عليها صوالحهم في الحياة . غير ان اتباع ماتقتضى به هذه الفضائل في الاجتماع الانساني أمر اختيارى قد تفعله او لا تفعله مختارا غير مجبر . هذا على الرغم من ان للعقل والآداب في كلتا الحالتين حكماً يختلف باختلاف الظروف . ولكن العلم الحديث قد أثبت في اواسط القرن التاسع عشر أن الانسان وكل الحيوانات العليا مقسورون على ضرب من الغيرية أثر الجبر فيه ثابت لايتبدل وأثر الاختيار فيه معدوم البتة

اذا تصفحت الاساطير التي تضمنتها مجلدات التاريخ الطبيعي في القرون الوسطى حتى أوائل القرن التاسع عشر لما وقعت على شيء يمكن ان يدل من طريق علمى على ان هنالك من قصد فى خلق الحياة فوق هذه الارض . بل انك لم تكن لتستطيع أن تفقه لاى الاسباب وضع نظام الاحياء في سلم من الارتقاء كان يظهر لاعين الباحثين جلياً واضحاً وان عجزوا عن تعليل السبب فيه قرونا ، حتى قام العلامة شارلز داروين ووضع نظريته في الانتخاب الطبيعي فى اواسط القرن الفارط .

لقد كان لهذه النظرية ، نظرية النشوء والارتقاء بالانتخاب الطبيعي وحفظ الصفوف الغالبة في التناحر على البقاء ، من الاثر فى كل فروع العلوم الحديثة مالا يمكن أن تبلغ منه بفكرة صحيحة حتى تقف على تاريخ تقدم العلوم وتطور الفكرة فيها منذ ظهر العلامة كاسبارفردريك وولف الجرمانى (١٧٥٩) حتى ظهور كتاب أصل الانواع . (١٨٥٩) وماترتب على ذيوع نظرية العلامة داروين من الآثار الجلى . على انه مهما كان لهذه النظرية الفذة من أثر فى العلوم الحديثة ، فانى اعتقد ، واعتقد بحق ، أن آثارها فى المباحث الفلسفية لايقل عن اثرها فى

العلوم : واعتقد فوق هذا أنه ما من شيء فى هذه النظرية أبعد مدى في التأثير على العقل الانساني من ناحية فلسفية صرفة في اثبات القصد فى علاقة بعض الاحياء ببعض . ذلك القصد الذى يبدو واضحاً دالا على أن نظام الكون الطبيعى الثابت الراجع فى أصل منشئه الى فعل ارادة مدبرة يكمن قصدها وتختفى غايتها وراء الظواهر انما هو نظام شامل لا ينفلت عن قطره شيء حتى الاحياء العليا والدنيا بما فيها الانسان ذاته .

لقد كانت لمباحث داروين في علم الحياة أثر قلب الفكرة القديمة في نظام الاحياء المرفولوجي (أى الخاص بالصورة والتركيب) . فان علماء الحيوان والباحثين في التاريخ الطبيعى كانوا يعتقدون ان اللون وحسن الصورة وجمال التركيب وما الى هذه الاشياء التي كانوا يقفون عليها لدى بحثهم صور الحيوانات التي يتناولونها بالوصف ولا يعلقون عليها بشيء مما يمكن استقراؤه فيها من عظات الطبيعة البالغة ليست سوى اشياء لم تتصف بها الصور الحية الا ارضاء لحس الجمال أو اقناع شهوة الالتذاذ والمتعة بها في الانسان . وكان اعتقادهم ان الخالق لم يحدث في الاحياء كل صور الجمال الا ليرضى الحيون الناطق المدرك لحقيقة شيء لا يدركه الحيوان الصامت وعلى هذا الاعتقاد ظلوا عاكفين طوال قرون عديدة

على ان فكرة القصد الفلسفية مصبوبة في هذا القالب لم تستمكن من عقول الباحثين فى علم وظائف الاعضاء والتشريح استمكاناً ينزل منزلة العقائد العلمية الاخرى

على أنه كان من المألوف فى القرون الوسطى حتى في اواخر القرن الثامن عشر أن يعكف بعض الباحثين على التأمل من حالات غامضة مبهمة تتناول مسألة المكافأة بين المخلوقات بعضها نحو بعض و بينها و بين البيئة التى تعيش مكتنفة بآثارها . وظلت هذه الفكرة السامية تساورها الشكوك والريب حتى وضع داروين نظريته المعروفة فى النشوء والارتقاء ، فطبقها من بعده الباحثون

على فكرة القصد فى نظام الطبيعة تطبيقا مقتطعا من حالات أتخذت فيها الحيونات الراقية في سلم المراتب الحيوانية أمثالا تؤيدها . فان نظرية داروين تقوم على معتقد بسيط ثابت فى ان كل عضو أوجزءاً من عضو ، وأن كل الخصائص الظاهرة والباطنة فى العضويات لابد من أن تعود بالنفع اما على ذلك الكائن بالذات واما انها كانت ذات فائدة لسلف من اسلافه الغابرين ، وأنه مامن خاصية من الخصائص العديدة والغرائز المختلفة فى طبائع العضويات قد استحدث فيها لمجرد النفع أو ارضاء لشهوة الجمال واللهو فى كائنات أخر غيرها . وعلى مقتضى ناموس الانتخاب الطبيعي يكون السبب فى وجود التراكيب المختلفة فى الكائنات راجع اما لانها مفيدة لها ولذلك تنتخب للبقاء ثابتة فى تضاعيفها ، واما لانها كانت مفيدة لاسلافها ولذلك انتقلت موروثة فى الاعقاب

هذه الفكرة الاولية فى تطبيق نظرية القصد الفلسفية على الكائنات الحية وعلى الطبيعة استتباعا ، مضافا اليها فكرة أن الكون آخذ فى النشوء ضارب فى الارتقاء بقسط وافر ، تزيح عن العقول بعض ما كان يكتنفها من ظلام لدى التفكير فى القصد من الخلق وفي الحياة برمتها وفى الموت الذى يتلو الحياة ذاهبا بالاحياء فى طريق واحد . فاذا ثبت أن ذلك الطريق يسلم الى الخلود ، فهنالك تحل مشكلة القصد فى الطبيعة حلا نهائياً ، واذا ثبت ان ذلك الطريق يسلم الى الفناء الصرف ، ظلت تلك الغيامة الكثيفة تظلل العقل الانسانى ازمانا لانقدرها

برقين — ١٩٢٦